رحالة في ليبيا كنود هولمبو، مواجهة الصحراء والحقيقة

(وبينما كنت أنظر إلى الساحل الإفريقي وقد بدأ يغيب عن الأنظار.. اعتصر قلبي ألماً على هؤلاء الفقراء الذين عرفتهم في نضالهم اليائس، سوف يسود العدل يوماً ما، عدل لا يشوبه جشع السلطة، عدل يدفع الجميع إلى فهم كل ما هو جميل في هذا العالم، وقد كان كيبلينج محقا إلى حد ما عندما قال «الشرق هو الشرق، والغرب هو الغرب»، وفي أعماق أنفسهم كانت شعوب الشرق والغرب تعلم وتدرك أنها متماثلة، فهما فرعان لشجرة واحدة، وعندما يبحث الإنسان في قلبه بغض النظر عن مكانه ونشأته، فإنه سوف يشعر بالحنين إلى أصل الشجرة، وربما كان ذلك هو سبب مقولة أن «من يطأ أرض افريقيا بقدمه فإنه حتما سيعود إليها).


الرحالة كنود هولمبو

كانت هذه آخر كلمات كتبها الرحالة الدنماركي الشاب «كنود هولمبو» في رحلته التي دونها بعد رحلة فكرية وروحية وجسدية طويلة، رحل فيها قبله من الغرب إلى الشرق، وفكره ودينه من المسيحية إلى الإسلام، وجسده بين صحارى وجبال ووديان ليبيا وشمال افريقيا، وضميره من عدم اكتراث وقلة معرفة بما يجري جنوب أوربا، إلى ضمير يحمل هم وقضية المظلومين الذين استعمرتهم دول أوربا في تلك الحقبة، قصة كنود هولمبو واحدة من التجارب الفريدة التي تحوي حكايات ومحطات وذكريات مهمة وممتعة لكل قارئ، وللقارئ الليبي خاصة.

بدأت فكرة كنود لخوض تجربة الرحلة عبر ليبيا حين كان في فندق بمدينة سبتة المغربية، هناك كان قد مكث مدة من الزمن تعلم فيها اللغة العربية، واعتنق الإسلام قائلا «**أعتقد ان الاسلام هو المسيحية الحقيقية**» وهناك في الفندق كان يتحدث إلى أحد النزلاء الإنجليز حول رغبته في الحج والتعرف على الشرق والذهاب إلى مكة، وكان يفكر في السفر بحراً، لكن ضيفه اقترح عليه السفر براً عبر ليبيا ورد عليه كنود «سيكون هذا مستحيلا.. إن الحرب لا تزال دائرة هناك».

لكن نزيل الفندق أقنعه بأنه سوف يرى الصحراء وما يحدث على حقيقته، ويتعرف على حياة الناس هناك ومعاناتهم في ظل الاحتلال الإيطالي وعاداتهم الشرقية، ولم يلبث كنود أن اقتنع بالفكرة، وحزم أمتعته وبدأ رحلته في شمال افريقيا سنة 1930 على متن سيارته الشيفروليه، رحلة طويلة جدا عبر المغرب والجزائر وتونس وصولا إلى ليبيا حيث حازت الجزء الأكبر والأهم من مذكراته التي سجل فيها قصصا كثيرا عن الحياة في ظل الاستعمار والقمع والمقاومة.

إلى زوارة عبر الشيفروليه القديمة

بعد رحلة طويلة بدأت من المغرب، وصل كنود هولمبو رفقة مرافق أمريكي يدعى تاربوكس إلى الحدود الليبية وعبر الحدود التونسية المحاذية لمدينة زوارة في سيارته القديمة التي سخر منها الضباط الإيطاليون حيث كتب في رحلته:-

(سألني الضابط الإيطالي: إلى أين أنت ذاهب؟
فقلت: إلى مدينة طرابلس
قال: وبعد ذلك ؟
قلت: سأتوجه إلى مصر.
رد ساخراً: في هذه السيارة !؟ وابتسم وضحك الضباط جميعا، في الحقيقة لم يكن منظر السيارة يوحي أننا يمكن أن نقطع بها تلك المسافات الشاسعة).

وعندما وصل إلى زوارة تم استقباله في منزل أحد المسؤولين المحليين، وحين عرف مستضيفوه الليبيون بأنه أوربي مسلم ويتقن اللغة العربية اهتموا كثيرا بالحديث معه ووثقوا به، ويروي هو بعضا من تلك الأحاديث في رحلته:

(بعد أن فرغنا من تناول الطعام، تواصل الحديث فيما بيننا، وقبل أن نخلد إلى النوم اقترب مني صاحب الندبة وهو يهمس في أذني قائلا: «إنك صحفي.. رجاء أن تسألهم في أوربا لماذا يأتون إلى بلادنا ويفرضون علينا ثقافة لا نقبلها، وبأي حق ؟.. أرجوك أن تسألهم لو انقلب الحال وذهبنا نحن إلى بلادهم ذات يوم ونحن نحمل المدافع الرشاشة وقلنا لهم نحن الحكام الشرعيون هنا، وأي شخص لا يعترف بذلك سوف نعتبره متمردا»

صمت برهة ثم ضغط على أسنانه قائلا: « إنهم يعاملوننا هنا في بلادنا مثل الكلاب، بل أسوأ من الكلاب » ولم يكمل كلامه ورحل الجميع. نظر إلي إبراهيم [صاحب البيت] قائلا: « أرجوك لا تفكر فيما قاله سيدي حسين.. لم يكن يقصد ما قاله » نظرت إليه ثم قلت له: « أنا لن أنسى قواعد وأصول الضيافة. إنني لن أتحدث مطلقا عما شاهدت أو سمعت»).

طرابلس.. في ذروة السيطرة الفاشية

(كان رمــز الفاشـــية موجودا في كل مكان ومكتوبــا تحته «إيطاليا الجديدة بقيادة موســوليني» كانت صورتــه وهو يرتدي الزي الأســود معلقة في كل مكان، وتحتها الكثير مــن الجماجم ومكتــوب عليها «من ليس معنــا فهو ضدنا»).

هكــذا كان يصف هولمبو مشـــاهداته الأولى في طرابلــس، ولعلها تعكس القبضة القوية للفاشـــية وقتها حيث كانت تلك الســنوات من أكـثر فترات الاحتلال قمعــا وقســوة، دخل طرابلس في يوم شــهد اســتعراضاً واحتفالا للقوات الفاشـــية وســط العاصمة، نصــب خيمته في إحــدى واحات طرابلــس في انتظار الحصــول على تصريح بالســفر شرقاً حيث كان الحصــول على التصريح صعباً واســتعان في ذلك بالقنصل الدنمـــاركي، وكان يتحدث إلى الإيطاليـــين الذين كانوا يحذرونــه من الســفر ومن البــدو في الصحراء، حيث قـــال له أحدهم:

«إن البــدو هنــا كالوحوش، أســتطيع أن أحكي لك الكثير مــن القصص عن فضاعتهم، إن البدو متعطشــون للدمــاء ولا يعرفون الرحمة، إذا امســكوك فإنهم يقيدونــك إلى الســيارة ويشــعلون النــار فيها، وقد يحدث أســوأ من ذلك» وهكــذا وضعوا صورة قاتمــة لليبيين سيكتشــف هولمبو فيما بعــد أنها لم تكن كلها حقيقية.

وفي طرابلــس تعــرف عــلى صبي يدعـــى «محمد» أخــذه ليخدمــه مؤقتــا في خيمته، لكنــه بعد ذلك اصطحبه معــه في رحلته الطويلة، بعــد ان طلب منه الصبـــي إيصاله إلى أقاربه في بنغــازي ويكتب هولمبو:

تنهد محمــد لبرهة قائلا: « كان والدي شــيخا عظيما، لكن أطلق عليــه الإيطاليون الرصاص عندما اســتولوا على واحتنــا، إن ذاكرتي لا تســعفني كي أحكي لك عن كل شيء، ولكــن دار قتال خارج المدينــة، وذات يوم أحــضر الإيطاليون والدي أســيرا مع تســعة آخرين مــن نفس الواحــة مكبلين بالأغــلال، يا اللــه ! لقد كان أمــرا فظيعا، لقــد صرخت والــدتي، وكنا نتضور جوعــا، فلم يكــن هناك مــا نأكله لمدة تســعة أيام مــما أدى إلى وفاة اثنين مـــن اخوتي».

سألته أين تسكن ؟

هــز كتفه قائــلا: « أماكن كثيرة ومختلفة يا ســيدي.. إنني أعيــش في المكان الذي يرزقنـــي الله فيه».



الصبـــي «محمــد» وســط الصورة مــع كل مــن «كنــود هولمبو» يســار الصــورة ومرافقه تاربوكــس يميــن الصــورة، التقطــت الصــورة في مــكان مبيتهم قــرب مدينــة مصراتة

اللقاء بالمشردين من قراهم

قــرب مدينــة مصراتة أقــام كنــود ورفيقه وهنــاك التقى للمــرة الأولى بالمشرديــن من أهــالي الواحــات والقــرى والبــدو الذين تــم تشريدهم واجبارهــم على مغــادرة أماكن عيشــهم، ودار بينه وبينهم هــذا الحديث الذي:-

(قضينــا معــاً الوقت حتى منتصف الليــل، تحدثنا أثناء ذلك عن نفســيهما وعــن حياتهما وتحــدث أحدهما قائلاً: « لقــد أصبحت الحيــاة هنا صعبة لنــا، فقد أصبح من غير المســموح حمل البنــادق، أما المعيشــة في المناطق الخصبــة في النوفليــة فقــد أصبح محرمــاً علينــا، لم يكن هنــاك مفر من الاستســلام فقد أصبح من المســتحيل الاســتمرار في الحرب ضــد الإيطاليين، لقــد ازددنــا فقرا... فقد قاموا بســد الآبار بالإســمنت حتـــى لا نتمكن من رعـــي الأغنــام، لــذا لم يكن هناك بــد من الاستســلام، إننــا الآن نعاني من المــوت البطـــيء، فنحن ملزمــون بدفع ضرائــب للحكومــة الإيطالية وغير مســموح لنا أن نعيش كما يعيــش البدو الاحرار لأن الإيطاليين يخشــون أن نلتحق بصفــوف الثوار المتمرديــن، إن ذلك أمــر ميؤوس منه»

ورد البـــدوي الآخــر قائلا: «أعتقــد أن الإيطاليـــين يعتزمون القضــاء علينا نها ئياً »

فرددت قائلا «إن ذلك مستحيل، أعتقد أنهم يريدون القضاء على التمرد»

فــرد البدوي قائــلا: « أي تمــرد تتحــدث أنت عنــه ؟، إنها حــرب للبقاء عــلى أرض آبائنــا وأجدادنا، ولكنهــا إرادة الله، إننا نزداد فقــرا وجهلا وهم ينعتوننــا بالحيوانات»).

اقتباسات

الأساطير حول قورينا

« إن المؤرخين يتنافسون مع الشعراء في إحاطة مدينة قورينا باستعارات وكنايات جميلة تتعلق بأصل هذه المدينة التي يعشقها أبولو .

نعم، لابد وأن يكون لأرض باسمة تحيط بها الفيافي الموحشة من كل جانب مثل هذه، بما لها من مياه رقراقه صافية تنبثق من وسط المدينة ومن قلب كهف غامض، لقد كان كل ذلك موضوعا لاختراعات أسطورية وردت تحت أشكال متعددة»

جان ريمون باشو
رحلة إلى مرمرة وقورينا

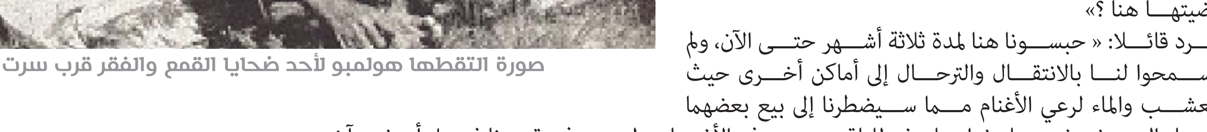
معسكرات الإعتقال

واصل هولمبو ومرافقه الأمريكي والطفل محمد رحلتهم، ليصلوا إلى سرت وكانت محاطة بالأسلاك، وينتشر فيها الجنود الإرتيريين الذين جلبتهم إيطاليا للحرب معها، وهناك يسجل هولمبو أول مشاهدة له لمعسكرات الاعتقال التي أقامها الإيطاليون لسجن سكان القرى والواحات فيها، ويكتب قائلا:

(وبالقرب من سرت شاهدنا أحد معسكرات اعتقال البدو، وذهبت أنا ومحمد إلى هناك بعد أن خلد تاربوكس إلى النوم، ويا لهول ما رأيت !! لم أر مثل هذا الفقر من قبل، لقد كانت النساء تضعن خرقا ممزقة يسترن بها أجسادهن، وكذلك ظهر الرجال، أما الأطفال الجائعون فاندفعوا نحونا يشحذون نقودا، وسألت أحد البدو: « كم المدة التي قضيتها هنا ؟»

فرد قائلا: « حبسونا هنا لمدة ثلاثة أشهر حتى الآن، ولم يسمحوا لنا بالانتقال والترحال إلى أماكن أخرى حيث العشب والماء لرعي الأغنام مما سيضطرنا إلى بيع بعضها

صورة التقطها هولمبو لأحد ضحايا القمع والفقر قرب سرت



هنا والعيش بثمنها وشراء علف للباقي من هذه الأغنام، وليس في مقدورنا فعل أي شيء آخر».

سألته: هل يرغب الإيطاليون في إجباركم على الاستقرار في مكان واحد فقط ؟

فرد قائلا: « الله وحده يعلم، أعتقد أنهم يريدون القضاء علينا» كانت النيران متوهجة، ووجوه النساء بملابسهن الرثة يبدو عليها الجوع الشديد، أما الأطفال فقد كان يبدو عليهم الهزال والضعف لدرجة أنك تستطيع رؤية الضلوع فوق أمعائهم الخاوية»).

تائهون في الصحراء

بعد خروجهم من سرت واتجاههم إلى مناطق برقة، ووسط الصحراء وجد هولمبو ورفاقه أنفسهم تائهين في الصحراء، فقد أضاعوا طريقهم حين كانوا متجهين لبئر مردومة، وأثناء مسيرهم تلفت إطارات السيارة أيضا فاضطروا للمسير على الأقدام، وبعد برهة من الزمن سقط مرافقه الأمريكي تاربوكس من شدة العطش، فتركه وواصل السير مع الصبي محمد (وواصلت أنا ومحمد مسيرنا، ومرت الساعة تلو الأخرى، وبدأ الظلام يخيم علينا ولكننا لم نستسلم، وقلنا لأنفسنا يجب أن نصل إلى بئر مردومة كي نحصل على الماء، ومضى الوقت ثقيلا واعتقدت أن تاربوكس كان قد مات، وفي الساعة الثامنة والنصف ضللنا طريقنا تماما، فلم يكن أمامنا سوى الرمال تحيط بنا من كل مكان).

ويصف مشاعره في موضع آخر (واشتدت ظلمة الليل، والتفتت ورائي فلم أجد محمد، فارتعدت وناديته بأعلى صوتي لكنه لم يرد، فلم يكن له أثر في ظلام الليل، وياله من شعور انتابني في تلك اللحظة.. وحيدا في طرابلس وسط الصحراء، وفي ظلمة الليل بلا مأوى ولا ماء.. وبلا أمل، لقد اختفى محمد، لم يكن محمد سوى صبي عادي قد يسميه الأوربيون شحاذا قذرا ولكن شوقي إليه ملأ قلبي وكياني لدرجة الجنون، وإذا لم أعثر عليه فسوف أفقد عقلي تماما.. ماذا تبقى مني؟

كنت مثقفا متمدنا، ولن ما فائدة ذلك في هذه الصحراء الجرداء ؟! لم يتبق من الثقافة والمدنية شيء فيّ، أصبحت رجلا وحيدا يناجي الله العلي القدير أن يهبه قلبا آخر بجانب قلبه حتى يمكنه من تحمل ذلك الفراغ اللانهائي.

وبقيت لمدة خمس دقائق جالسا وحيدا على قمة التل، تعلمت خلالها من الحكمة مالم أكن أستطيع تعلمه من الفلاسفة الأوربيين طوال حياتي.. لم تكن الحياة والموت سوى شيء واحد)

وبعد معاناة كبيرة استطاعوا لحسن حظهم النجاة من الموت عطشا وتمكنوا من الوصول إلى إحدى الحاميات الإيطالية القريبة ليواصلوا بعد ذلك رحلتهم، وفي اتجاههم إلى اجدابيا خيموا في الصحراء ليلتقي هولمبو لأول مرة مباشرة بمجاهدين ليبيين من الكفرة كانوا يمرون بنفس المنطقة، وتحدثوا لهم عن أوضاعهم المأساوية وقتها قائلين: (الأمر هنا سيء للغاية، إن اعدادنا تقل يوما بعد يوم، قرانا تدمر، ونساؤنا تؤسر، لا نملك ما نفعله أمام آلات الإيطاليين الشيطانية، لقد قبضوا على اثنين من رجالنا وسوف يقومون بشنقهما.. الله هو العادل.

سألته من أين أتيت ؟ رد قائلا: « من الكفرة.. إنها أكبر واحة في الصحراء الليبية وهي مازالت تنعم بالحرية، ولكننا جميعا نحمل السلاح لحماية أنفسنا ضد الإيطاليين، إننا نتوقع وصولهم إلى هناك في أي وقت، لقد كنا مجموعة من المقاتلين ولكن أعدادنا نقصت، قتل منا من قتل وشنق منا من شنق»)



هولمبو يصف مشهد إعدام المجاهدين في اجدابيا

(وحين وصلنا إلى اجدابيا كانت المشانق قد نصبت في منتصف الميدان كنوع من التحذير والردع لكل السكان، فقد كانت عمليات الإعدام تتم علنا، كان من المقرر اعدام اثنين من البدو شنقا، وبالفعل في الصباح وقبل الشروق اصطفت مجموعة من الجنود الإريتريين في الميدان حول المشانق، كانوا يرتدون الزي العسكري والطرابيش الطويلة الحمراء بينما وضعوا صلبانا من الفضة حول أعناقهم، لم يكن هناك أثر للعرب.. لقد آثروا البقاء في بيوتهم. أحضروا البدويين.. كانا نحيلي الجسم يبدو عليهما البؤس الشديد وكانا مقيدين بالسلاسل، لم يبدو عليهما أي خوف من الموت، لقد كانا متماسكين تماما.. وعندما وقفا أسفل المشانق أخرج أحد الضباط ورقة مكتوبة وأخذ يقرأ صحيفة الاتهام قائلا:

«نظرا لخروجكما عن النظام واشتراككما في تمرد قررت المحكمة اعدامكما شنقا» بعد أن تلا الضابط صحيفة الاتهام.. قرعت الطبول.. تصافح الرجلان في هدوء واتجها كل إلى مشنقته، والتفت الحبال حول أعناقهما، لم يبديا أي نوع من المقاومة، وسرعان ما تدلت جثتاهما، ولم نر سوى بعض التشنجات ثم انتهى الأمر.

وقف أحد الجنود الإيطاليين يشاهد عملية الإعدام وهو يدخن سيجارته قائلا: « لا روح في هؤلاء البدو.. هؤلاء الكلاب لم يأبهوا للموت»).

خطاب رودولفو غرتزياني في بنغازي

في الفترة التي وصل فيها كنود هولمبو إلى مدن برقة كان الجنرال والسفاح الشهير رودولفو غرتزياني يقود الحملة هناك ضد المجاهدين الليبيين، ويسيطر بقبضة من حديد على المناطق هناك، وكانت الإعدامات للمجاهدين والمتعاونين معهم تنفذ بشكل شبه يومي في الشوارع، ولا يجرؤ أحد من السكان عن الاعتراض خوفا من أن يلاقي المصير نفسه، وسجل هولمبو في مذكراته خطابا لغرتزياني ألقاه في أحد الاحتفالات الفاشية وصفه بهذه الكلمات:-

(في اليوم التالي ظهرت بنغازي في أبها حللها، كان العلم الإيطالي يرفرف فوق جميع المباني العامة، امتلأت الشوارع بالجنود الإريتريين في ملابسهم الاستعراضية الجديدة، كان يوم الأحد وهو اليوم المحدد لانخراط الأولاد الفاشيت من سن 16 إلى 18 عاما في التجنيد، ومن ثم لهم الحق في حمل البنادق.

كان الجميع يرتدون القمصان السوداء، وفي العاشرة بدأوا الاستعراض أمام مبنى الحكومة في الميدان الكبير أمام الفندق، حملوا بنادقهم واصطفوا في انتظار المحافظ.. بدأ عزف الموسيقى الفاشية، هتف الأولاد جميعا عندما ظهر غرتزياني في الشرفة.. كان رجلا طويل القامة، حاد الملامح، كان عسكريا حتى النخاع، لم يكن يجيد الخطابة. كان كمن ينبح في ساحة العرض، وقال:

« أيها الأولاد.. لقد تسلمتم بنادقكم اليوم، ستستخدمونها للدفاع عن إيطاليا التي نحبها جميعا، في رفع شأنها والمحافظة على كرامتها، تذكروا في كل وقت وفي كل محفل أنكم إيطاليون، ورومان، وتذكروا أن أجدادكم كانوا هنا من قبل، إنكم رومان تقاتلون البربر، عليكم بالرفق بهم ولكن اجعلوهم يشعرون دائما أنكم الأفضل والأرقى.. تذكروا أنكم رومان « رفع الجنرال يده ونظر إلى العلم الإيطالي.. واستطرد قائلا في خطبته « مرة أخرى ترفرف أعلامنا في هذا البلد.. لن تزول أعلامنا مرة أخرى.. عاشت إيطاليا»

تمركزت كتيبة من الجنود الإريتريين خارج مبنى الحكومة، وخاطبهم الجنرال غرتزياني من خلال مترجم قائلا: « أيها الجنود الشجعان.. لقد حاربنا سويا في طرابلس أمام مرزق وفزان من أجل أن يحلق النسر الإيطالي بجناحين فوق ليبيا الرومانية.. إني أقدم لكم عظيم شكري على ذلك، إن أمامكم معارك جديدة أعلم أنكم ستحققون النصر مع الإيطاليين الذين يعتنقون نفس ديانتكم، ولنردد سويا: « عاشت إيطاليا ومستعمرتها أريتريا « رفع الجنرال يده.. وترددت الهتافات التي يقودها الضباط الإيطاليون بين الجنود السود.. وكانت أصواتهم كأصوات الغربان، ثم بدأت القوات الإريترية في الغناء والرقص في الشوارع، تكونت منهم مجموعات، كل مجموعة تتكون من عشرة جنود وقد تماسكوا بالأذرع وأخذوا يرقصون في دوائر ويغنون بلغتهم.

كان العرب يرقبون ما يحدث دون مشاركة، كانت الغالبية العظمى من السكان قد لزموا منازلهم حتى ينتهي ذلك الاستعراض العسكري).

الاعدامات اليومية في بنغازي

هولمبو أسيرا في قبضة رجال عمر المختار

بينما كان هولمبو في طريقه من بنغازي إلى درنة وسط الجبال، وقع في يد المجاهدين الذين يقودهم عمر المختار، في البداية أطلقوا عليه رصاصة ليوقف سيارته وكانوا يريدون قتله لاعتقادهم أنه إيطالي أو عميل لهم، لكنه أقنعهم بأنه ليس ايطاليا ولا عميلا وانه مسلم وقرأ لهم بعض القرآن ليتأكدوا، ثم اعتقلوه ودار بينهم حديث طويل قبل أن يطلقوا سراحه، ويعرفوا أنه صحفي اوربي مسلم جاء لينقل الحقيقة، ربما يكون لقاءه هذا من المقابلات الصحفية النادرة التي سجلت مع المجاهدين الليبيين آن ذاك.. يقول هولمبو:

(قلت له: « لقد حضرت إلى هنا لأتعرف على طرق معيشتكم وحياتكم هنا.. إنهم لا يعرفون عنكم شيئا في أوربا»

سألني: وما هي أوربا ؟ قلت له: «إنها قارة يعيش فيها الانجليز والفرنسيون وأمم أخرى»

رد سائلا: «وهل يعيش الإيطاليون هناك أيضا ؟ « كان يسميهم الروميون، قلت: «نعم.. إيطاليون يعيشون هناك أيضا لكنني أنتمي إلى قبيلة تختلف عن الإيطاليين تماما»

ثم بدأنا سيرنا نحو معسكرهم، واصلنا السير حتى حلول الظلام، ثم قمنا بإشعال نار في مكان مفتوح يصلح لإقامة معسكر لليلة واحدة.

جلسنا نحن السبعة حول النار وسألت القائد « ألا تخشى أن يراك الإيطاليون ؟»

رد بسرعة: « أنا لا أخشى أحدا.. إن الإيطاليين لا يجرؤون على الخروج من مدنهم التي يتحصنون بها إلا إذا كان لديهم أعدادا كبيرة من الجنود وبنادق سريعة الطلقات، أما في الظلام فهم لا يجرؤون على مهاجمتنا على الإطلاق»

سألني أحدهم: « لا بد أنك تحدثت مع بعض الإيطاليين.. ماذا يقولون عنا ؟»

قلت لهم: « إن الإيطاليين يتهمون سكان الجبال بارتكاب فظائع في حربهم معهم ويتهمونهم أيضا بتعذيب سجنائهم»

نظـر إلي القائـد ثم ألقى بفرع شـجرة كبـير جاف في النـار فارتفعت ألسـنة اللهب ثم قال: « نحـن نعرف أنك مسـلم صالح ولن تخدعنا، سـوف أحكي لك شـيئا وأقسـم بالله أن ما سـأقوله لك هـو الحق.. إننـي لم أعش في الجبال هنـا كثيرا ولكنني مجـبر على العيش فيهـا الآن فليس أمامـي بديل آخر، فقـد حلـت بنا مصيبـة في الواحة التي كنـت أعيش فيها حيث عـاش والدي وأجـدادي وجميع أفـراد عائلتي منذ سـنوات عديدة، لقد شـعرت بالفرح عندمـا رزقنـي الله بولد.. لكـن الآن.. الله وحده يعلـم أين مكان ولدي، لقـد رزقني الله بابنـة كانت نور عينـي، كانت تملؤ الدنيا بهجـة وسرورا، كنت أحبهـا كحبي لابنـي ولكن حبي للـه أعظم وأكبر مـن أي حب آخر».

لم أرد عليـه بكلـمات ولكننـي اكتفيت بإيمـاء رأسي، كانت الدمـوع تملأ عيون القائـد، كانت دموعه تلمـع في ضوء النـار، وأكمل قائـلا: « كنا نعيش في سـعادة في واحتنـا، لقد كنت غنيـا، كان لدي أكثر من مائة مـن الإبل، كانت كلمتي مسـموعة لدى الجميـع، وذات يوم كنت في واحة مجـاورة مع بعض الرجـال لمدة ثلاثـة أيام، وعندما عدنا إلى واحتنا كان أول ما شـاهدته زوجتـي، جاءت إلي عدوا والرعب يملأ عينيها وشـعرها وراء ظهرها وملابسـها ممزقة.

كانـت تنتحـب وتقـول « لا تعد إلى البيـت.. لا تعد إلى البيت.. فليغفر الل لي وليسـامحني على ما سـأقوله لك « وكانت تبكي بكاء شـديدا ولم أسـع منها أي كلمـة أخـرى، ترجلت مـن على جملي لأجد أخي قـد أتى، قابلني قائـلا: «أخي.. أنت تعلم أن الله يعطي كل إنسـان ما قسـمه له.. لقـد مات محمد، لقـد كان الإيطاليون هنـا، لقد أطلقوا الرصـاص على الرجال وقتلوا واحدا من كل خمسـة رجـال لأننا حاولنا الدفاع عن أنفسـنا».

لقـد اهتز كياني لما سـمعت.. لم أسـتطع الكلام، واسـتمر أخي في روايتـه: « عليك أن تثق باللـه مهما حدث، لقد اختفت عائشـة – عائشـة هي ابنتي – لقـد أخذهـا ضابط إيطالي مـع بعض الجنود الإريتريين وأخـذو كل الجمال معهم « قلـت لأخي كان يجـب أن تجنبني وبيتي هذا العـار، كان يجب عليك أن تقتلهـا قبل أن يأخذوهـا.. هذا أشرف لنا».

رحلـت عـن الواحة على الجمـل الوحيد الباقي، ولم أكـن أدري أن ذلك سـيكون آخر عهد لي بالواحة، بحثت عن عائشـة لشـهور طويلـة في مدن كثيرة وأخـيرا عـثرت عليها في إحدى بيوت الفسـق في درنة، لقد اجبرها الإيطاليون على ممارسـة الفسـق نظير المال، عرفتني عائشـة وعندما طلبـت منها العودة هـزت رأسـها وبكت، قلت لها سيسـامحنا الله جميعـا، لقد صفحت عنك، ولكـن أخبريني كيف وصلـت إلى هنا ؟

ردت باكيـة: « بعـد أن أخذ الإيطاليون الجـمال، أخذوني معهم وأحـضروني إلى هنا « انتحبت عائشـة وازداد بكاؤها وقالت لي: « اقتلني يا أبي، لن أسـتطيع الهـرب مـن هذا المكان، إن موتي عـلى يدك أهون من تركي هنـا « فقتلتها وقبلت جبينهـا وهربت إلى الجبال، وأنـا أقول لك الآن.. سـوف أقتل كل إيطالي يقابلنـي، هذا هـو القصاص والعدل، أقسـم بالله العظيـم أن كل واحد ممن حولك لديه قصـة مماثلة، لذا فإننا لن نستسـلم، إننا نحـارب إلى آخر طلقة في بنادقنـا إننا لا نخشى مدافعهم الرشاشـة، لا نخشى الجوع، لا نخشى أن تكون ملابسـنا رثة، سـوف نحارب إلى آخر قطرة دم، هؤلاء الشـياطين هم سـبب معاناتنـا.. حامد ما سـبب وجودك هنا ؟»

رد حامد: « لقد قاموا بشنق أخي «

وأنت يا عبد الله ؟

رد عبد الله « لقد استولوا على كل ممتلكاتي.. قالوا أنني ليس لدي ما يثبت أنها ملكي مع أنني ورثتها من أبي»

وأنت يا محمد ؟

رد محمد قائلا: «لقد أطلقوا الرصاص على أبي وأخي»

وماذا عنك يا عبد السلام ؟

رد عبد السلام: « لقد حكموا علي بخمس وعشرين سنة أشغال شاقة فهربت»)

وبعـد أدائهـم للصلاة واسـتمرارهم في حديث آخـر يكتب هولمبو انطباعـه عن ما دار في هـذه الليلة: (كانت الليلة شـبه مظلمة، وأخـذت النار تخفت، عرضـت عـلى القائد إحـدى البطانيتين حتى يلتحف بهـا فاعتذر عن قبولهـا، أما البقية فقد افترشـوا الأرض وراحوا في سـبات عميق، تدثـرت بالبطانيتين ونمت نومـا عميقا.

اسـتيقظت في الصبـاح قبل الآخرين، نظـرت إليهم وهـم في نومهم.. كانت ملابسـهم رثة، ولكن علـت وجوههم وهم نائمون نظرات السـلام والتصميم عـلى النصر، لقد أدركت الآن لمـاذا كان هؤلاء الرجال على اسـتعداد للموت دون أن يهتـز لهـم جفن، ففـي اليوم الـذي قضيته معهـم لاحظت مدى تمسـكهم بدينهم واعتصامهم بحبل الله

لم يخطـر ببـال أحدهـم أن يضيق بما قسـمه الله له مهـما كان مصيرهم، فقـد كانـوا يحمـدون اللـه وهـم تحت المشـانق عـلى نعمـة الحياة التـي وهبها إياهـم ويتحملـون أي معانـاة، كان هؤلاء الرجـال النائمون فقـراء وأميـون فلـم يعرفـوا القـراءة، بـل كانـوا يكتبون أسـماءهم بصعوبـة.. ولكنهـم كانـوا بالنسـبة لي أنبـل مـن رأيـت مـن البشر)

اقتباسات

سير الشعوب

« تكتب سير الشعوب العظيمة في ثلاثة كتب، كتاب الأعمال، كتاب الأقوال، كتاب الفنون، ولا يفهم أي من هذه الكتب بدون قراءة الكتابين الآخرين، لكن الأهم بينها على الإطلاق هو الكتاب الأخير»

جون روسكين

لقاء اتباع السنوسية في السجن

ضمن أحداث متلاحقة ولشك الإيطاليين فيه، تعرض هولمبو للاعتقال والسجن قبل أن يتم ترحيله دون أن يكمل رحلته، وفي السجن كان لقاؤه مع بعض المجاهدين وأتباع الطريقة السنوسية المحكومين بالإعدام، الذين كانوا يسألونه عن وضعه ويرجون له فك أسره دون أن يهتموا أو ينزعجوا لمصيرهم المحتوم، وهذا ما أثار شجون هولمبو واصفا ذلك بقوله :

(اغرورقت عيناي بالدموع، لم يفكر هؤلاء الرجال في مصيرهم المحتوم، كانوا يدعون بالخير لي، هؤلاء الذين كان ينعتهم الضباط الإيطاليون بأبشع الألفاظ، كانوا يصفونهم بالبهائم، لقد اتضحت الصورة أمامي، لم يكن الإيطاليون يعرفون هؤلاء الرجال حق المعرفة ولم يفهموا طبيعتهم، لم يعرفوا طبيعة هؤلاء الرجال الذين جعلوا منهم عبيدا.

إنهم سجناء على حافة الموت، لقد تملكني إعجاب شديد بهم، هؤلاء الرجال كانوا يقطنون الجبال ويرفضون الاستسلام، لقد كانوا يفضلون الموت على حياة الاستعباد).



أسرى ليبيون .. أثناء اعتقالهم

أفرج عن كنود هولمبو بعد ذلك ورحّل دون ان يكمل رحلته، لكن رسالته كانت قد اكتملت، وحين طبع كتابه في العام التالي كان قد أثار ضجة كبيرة في كثير من بلدان العالم وأرق الإيطاليين الذين سقطت آلة دعاياتهم لأول مرة أمام أوربي تعاطف مع السكان والمقاومين في ليبيا ونقل صورة ما يحدث لهم كما هي، وكشف الكثير من بشاعة الاستعمار آن ذاك.

وفي أكتوبر سنة 1931 سافر كنود هولمبو إلى الحج مرة أخرى، وحين غادر الأردن إلى السعودية وتحديدا في مدينة «الحقل» اختفى هناك، ولم ير له أثر بعد ذلك، الكثير من الاتهامات غير المؤكدة أشارت لاغتياله على يد المخابرات الإيطالية أو أحد عملائهم، وقد نشرت إحدى الصحف الدنماركية تقريرا قالت فيه إلى أنها التقت بقاتله في السعودية.

(سوف يسود العدل يوما ما) تلك كانت أمنية شاب فعل الكثير في فترة عمرية قصيرة، 29 سنة فقط عاشها هولمبو كانت كافية لنقش اسمه في حقبة تاريخية فاصلة من قصة ليبيا والعالم.